الفصل الثامن

ثقافة النصف الثانى من عصر إيدو

١ - انتشار التعليم بين عامة الشعب :

انتشـــر التعليم فى الفترة الأخيرة من عصر إيدو معتمدا على مدارس المعابـــد (Terakoya) أى المدارس الصغيرة التى كانت تقام فى المعابد، وقد تميزت هذه المدارس عن المدارس العادية التى تم إنشـــاؤها بعد ذلك فى عصر ميجى بأنها كانت لا تمتلك برنامجا موحدا للدراسة ولكن كان الدرس يقام على ما يعن للراهب أو الســـاموراى الذى كان يلقى الدرس، وكذلك لم يكن التعليم بها إلزامى كما فى مدارس العصر الحديث، وكان التلاميذ يبدأون الدراســـة بها منذ ســـن الســـابعة أو الثامنة من عمرهم، وكان الهدف الأساســـى من تلقى التعليم فى هذه المدارس هو القدرة على القراءة والكتابة وذلك حتى يســـتطيع عامة الشعب قراءة الفرمانات التى تصدر من الحكام.

ولم يقتصر إقامة هذا النوع من المدارس فى المعابد فقط، فقد كان يمكن إقامتهـــا فى المنازل أيضا إذا كان عدد التلاميذ لا يزيد على ثلاثين طفلا أما تلك التى كانت يزيد عدد تلاميذتها على المائتى تلميذ فكانت أقرب إلى أن تكون مدرســـة ابتدائية ذات نطاق صغـــير مما نعرفه هذه الأيام، وفى الحالة الثانية كان لابد من تخصيص مكان كبير مســـتقل لعقد مثل هذه المدارس.

وكان التلاميذ يدرسون فى السنوات الثلاث الأولى الحروف الهجائية البسيطة من اللغة اليابانية المعقدة، وكذلك القراءة البسيطة وإلى جانب ذلك كانوا يدرسون العمليات الحسابية البسيطة من جمع وطرح وضرب مستخدمين فى ذلك آلة حاسبة خشبية تسمى سوروبان (Soroban) وذلك حتى يستطيعوا استخدامها فى الحياة اليومية.

وأما التلاميذ الأكبر سنا فقد كانوا يحصلون على قدر ما من المعارف الجغرافية والتاريخية ومعلومات عن التجارة، وذلك لأن كثيرا من الأطفال كانوا أبناء تجار ولذلك كان عليهم أن يتحصلوا على معلومات ومعارف يمكن تطبيقها فى الحياة اليومية وفى أعمالهم التجارية بعد تخرجهم فى مدارس المعابد وذلك عندما يبلغون سن الثانية أو الثالثة عشرة من عمرهم، وفى الحقيقة فقد لعبت مدارس المعابد دورا كبيرا فى رفع مستوى التعليم لعامة الشعب، وبفضل هذه المدارس أصبح انتشار التعليم بين جموع الشعب من أكبر النسب فى العالم آنذاك، وكان لهذا المستوى من التعليم وانتشاره أثره الإيجابى فى نهضة ميجى التى تلت عصر إيدو.

وليس معنى أن يتخرج المواطن فى مدارس المعابد أنه بذلك يكون قد أنهى دراسته تماما، بل إن الكثيرين كانوا يستمرون فى الدراسة بعد التخرج فيما عرف بدراسة الحياة أو الدراسة الأخلاقية (Shingaku)، ولما كان عسيرا على المواطن العادى دراسة العلوم والمبادئ الكونفوشيوسية التى كان يدرسها المحاربون، فكان أن أتيح لهم دراسة هذ العلم الذى يمكن تشبيهه بمادة التربية الأخلاقية فى أيامنا هذه.

وقد كان المفكر إيشيدا بايجان Ishida Baigan (١٦٨٥م – ١٧٤٤م)

الذى عاش فى زمن الشوجون العظيم يوشيمونى هو أول من بدأ فى تدريس هذا النوع من العلوم، وقد عمل بايجان منذ الصغر فى بيت تاجر من تجار كيوطو، ولذلك استطاع أن يعايش حياة التجار ويحصل على خبرات كثيرة عن طريقة حياتهم، ومن هذه الخبرات أدرك أهمية الاقتصاد والتقشف وأهمية الصدق فى التعامل مع الآخرين والاجتهاد فى العمل بلا ملل. وقد جعل بايجان تطبيق هذه المبادئ فى حياة التجار توازى أعمال القديسين، وعمل بجد من أجل إيصال هذه الفكرة إلى عقول التجار.

ومما جعل من أفكار بايجان تنتشر بسهولة ويسر بين التجار وغيرهم من عامة الشعب أنه كان يستخدم أسلوب الحكاية والأحاديث فى تعليم تلاميذه وطلابه، وإلى جانب ذلك فقد مضى الزمن عن أفكار عصر مثل عهد جنروكو الذى كان كل ما يهم الناس خلاله هو أن يتمتعوا فقط بحياتهم وبدلا من ذلك تفجرت لدى التجار معانى جديدة فى نفوسهم وذلك بإدراك ما بذاتهم من قدرات وإمكانات.

وقد وصل عدد المدارس التى تقوم بتدريس تعاليم إيشيدا بايجان الأخلاقية إلى مائتى مدرسة فى منطقة غرب اليابان وحدها (كيوطو – أوساكا وما حولهما من مدن) وذلك بفضل المجهود الوافر لتلميذه تشيما طوآن Teshima Toan (١٧١٨م – ١٧٨٦م) ، وواصل جهود طوآن فى توصيل هذه التعاليم والأفكار ليس فقط إلى سكان المدن والتجار ولكن أيضا للفلاحين والمحاربين والحكام المفكر ناكازاوا ضونى Nakazawa Dōni (١٧٢٥م – ١٨٠٣م) ثم سرعان ما انتشرت هذه المدارس الأخلاقية فى منطقة شرق اليابان وشمال شرقها.

وقد استغل المستشار ماتسودايرا سادانوبو هذه التعاليم الأخلاقية فى تطبيق إصلاح كانسى وذلك لحث الفلاحين على العمل بجهد وعدم الخروج على الحاكم أو الثورة عليه، وكذلك فعل بعض الدايميوات الذين شجعوا على دراسة هذه التعاليم وذلك من أجل تنفيذ سياساتهم.

ولكن كان لهذا التشجيع والاستغلال من جانب الحكام للمدارس الأخلاقية أثره فى فقدان هذه المدارس وتعاليمها مغزاها الأصيل فى كونها نابعة من الشعور الإنسانى البحت لسكان المدن، فأصبحت مجرد تعاليم ودروس تأتى من علية القوم أو الحكام لعامة الشعب، ولذلك شهدت سقوطا سريعا فى نهاية عصر إيدو وبداية عصر ميجى.

وفى مدينة أوساكا أيضا أقيمت مدارس لتلقى سكانها التعليم فيها وذلك أثناء ثورة كيوهو الإصلاحية (١٧١٦م – ١٧٣٦م) وقد قام على إدارة هذه المدارس أصحاب السطوة من سكان المدينة، ومن بين الأساتذة العظام الذين قاموا بالتدريس فى هذه المدارس العالم الكونفوشيوسى ناكاى تشيكوظان Nakai Chikuzan (١٧٣٠م – ١٨٠٤م) وغيره العديد من العلماء المدنيين.

وفى مدارس أوساكا تمتع الطلاب بقدر كبير من الحرية وسهولة التعليم الذى قد لا يجدونه فى الكونفوشيوسية الجديدة التى كان يدرسها المحاربون، ومما يدل على هذه الليونة التعليمية تلك المادة الأولى من قانون أشهر مدرسة بأوساكا والتى كتبت على الحائط وجاء بها ما يلى: «إن التعليم شىء هام جدا لجعل عمل البيت رائع ولذلك يمكنكم الحضور إلى المدرسة بدون إحضار الكتب المقررة، وكذلك يمكنكم الخروج أثناء الدرس فى الحالات الضرورية» هكذا عكست هذه المادة

طبيعة الحياة العملية التجارية التى تمتعت بها مدينة أوساكا منذ القدم، وكانت هذه المدرسة بحق مناسبة لهذه الطبيعة العملية.

ومن بين العلماء العظام الذى درس فى مدرسة أوساكا العالم الموسوعى ياماجاتا بانتو Yamagata Bantō (١٧٤٨م - ١٨٢١م)؛ هذا العالم استطاع إخراج موسوعة من اثنى عشر جزءا وذلك فى عام ١٨٢٠م أى قبل وفاته بعام واحد، هذه الموسوعة ضمت موضوعات عدة فلكية وجغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وغيرها، وتطرق من خلال موسوعته هذه التى أسماها «بدل الحلم Yumenoshiro» إلى شرح نظرية دوران الأرض حول نفسها وشرح نظرية الإلحاد أو عدم وجود الإله بل وعدم وجود الأرواح وغيرها من الموضوعات التى اعتبرت حساسة للغاية آنذاك، وتعتبر أفكار وكتابات ياماجانا ذات أهمية كبيرة لدراسة تاريخ الفكر اليابانى، ويعتبر ياماجاتا فى تفكيره هذا نموذجا للتفكير الذى يستحوذ على سكان المدن حيث كان ينظر للأشياء بطريقة منطقية بحتة أى إنه كان ينظر للأشياء كما هى عليه ولا يفكر فى الغيبيات.

أما الساموراى فقد كان لهم مدارس خاصة بهم أيضا وكانت هذه المدارس تسمى بمدارس المقاطعات (Hanko)، وما زال هناك العديد من هذه المدارس باقية بأسمائها القديمة مثل مدرسة يونيزاوا للمحاربين فى محافظة ياماجانا (Yonezawakōjōkan) ومدرسة فوكوياما بمحافظة هيروشيما (Fukuyama Seishi kan) وغيرهما، وكذلك فإن المدارس الخاصة التى كان يديرها الساموراى وتدعى جوكو Juku فقد تحول العديد منها بعد تطويرها إلى جامعات حكومية وأخرى خاصة مثل مدرسة شوهيزاكا التى أقامتها حكومة الباكفو فقد تحولت لكى تصبح

جامعة طوكيو، وتحولت مدارس المقاطعات لتصبح بالتالى الجامعات التى يمكن تعريفها بالجامعات المحلية، وقد أقيمت مدارس المقاطعات وذلك من أجل أن يتعلم بها أولاد الساموراى ، ولذلك فقد كان الطابع الغالب عليها الطابع العسكرى والدراسة الغالبة هى دراسة الكونفوشيوسية نظرا لارتباط هذه الديانة بالعقيدة العسكرية للساموراى، وفيما بعد تم تبنى دراسة علم اللغة اليابانى وذلك بعد تنامى الحس الوطنى ومحاولة إحلال كل ما هو يابانى بدلا من العلم الصينى وتعاليم الصين وكذلك تم استخدام العلم الهولندى أى العلوم التى جاء بها الهولنديون مثل الطب وغيره، وبشكل عام كل العلوم الغربية.

أما الفلاحون فقد كان لهم مدارس خاصة بهم أيضا سميت بمدارس القرى أو الريف (Gōgaku)، وكانت أشهر مدرسة تمثل هذ النوع من المدارس هى مدرسة شيزوتانى كو Shizutanikō والتى أسسها حاكم مقاطعة أوكاياما فى عام ١٦٨٨م، وبنيت فى عصر جنروكو فى عام ١٧٠١م، ويُعد مبناها أقدم مبنى تعليمى موجود حتى الآن فى اليابان.

٢ - انتعاش الدراسات اليابانية :

فى بداية عصر إيدو كانت العلوم الصينية ممثلة فى الكونفوشيوسية هى السائدة فى اليابان، ودرس اليابانيون بنهم النصوص الصينية (Kanbun) ومن خلالها درسوا الأدب والتاريخ الصينيين. ولكن منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر بدأت الدراسات اليابانية ممثلة فى التاريخ والأدب اليابانيين فى الانتعاش، وقد أطلق على هذه الدراسات اسم (العلوم القومية Kokugaku) وبرغم ذلك فقد كان للراهب كيتشو Keichu الذى عاش فى الفترة الأولى من عصر إيدو الفضل فى بداية هذه

الدراسات بكتاب ضخم أصدره عن أقدم وأطول مجموعة شعر يابانية تدعى المانيوشو، وذلك فى عام ١٦٨٨م.

وبقدوم القرن الثامن عشر ظهر علماء آخرون بحثوا بجد فى الدراسات اليابانية ونشروها فى البلاد، ومن أشهرهم كادا نوأزومامارو Kadano Azumamaro (١٦٦٩م – ١٧٣٦م) وكامونو مابوتشى Kamono Mabtuchi (١٦٩٧م – ١٧٦٩م) وقد اشتهر الثانى بأنه كان أستاذا لأشهر عالم لغوى فى تاريخ اليابان وهو موطو أورى نورى ناجا Motori Nori Naga (١٧٣٠م – ١٨٠١م) وتتضح أهمية نورى ناجا من كونه أول من بحث المظهر والروح الحقيقية لليابانيين من خلال دراسة النصوص الأدبية القديمة، فقد كانت الدراسات اليابانية منذ عهد كيتشو الذى ذكرناه للتو وحتى مابوتشى أستاذ نورى ناجا تحاول فقط شرح النصوص والأعمال الأدبية القديمة أو الاستمتاع بإنشاد الشعر الياباني التقليدى الذى يسمى أوكا Waka ولم تغوص فى أعماق هذه النصوص الأدبية لاستخراج الروح اليابانية، وقد انصب اهتمام نورى ناجا الأكبر على دراسة أقدم كتاب تاريخ فى اليابان كتب فى عام ٧١٢ ميلادية واسمه الكوجيكى «Kojiki» وهذا الكتاب يحتوى على العديد من الأساطير وحكايات الآلهة، وقد قام نورى ناجا بشرح وتفسير لهذا الكتاب القديم وذلك فى أربعة وأربعين مجلدا أسماه كوجيكى دن «Kojikiden»وأنجزه تماماً فى عام ١٧٩٨م ولكن تم إصداره فى عام ١٨٢٢م، وقام نورى ناجا كذلك بشرح لواحدة من أطول وأشهر الروايات اليابانية وهى جنجى مونوجاتارى Genjimonogatari والتى كتبت فى أوائل القرن الحادى عشر، واستخرج من هذين العملين عدة معانى جميلة يمتاز

بها الشعور اليابانى آنذاك، ومن أهم هذه المعانى تعبير مونونوأوا رى Mononoaware وهى تعنى النفس الهادئة الطيبة أو ذلك الشعور ، ويذكر نورى ناجا أن اليابانيين الذين ظهرو على مسرح الكوجيكى كانوا ذوى صورة هادئة تميل إلى الطبيعة الجميلة ، وهؤلاء اليابانيون لم يكونوا قد تأثروا بعد بأديان مثل الكونفوشيوسية أو البوذية ، ويعتبر نورى ناجا أن هذه السمة هى أقدم ما يميز الروح اليابانية ، وهى أروع روح فى العالم كله.

ويتضح من هذا الاعتقاد لدى نورى ناجا مدى حنينه الجارف للماضى واعتباره أفضل بكثير من الحاضر الذى عاشه ، وهذا شىء غير غريب خاصة إذا ما اطلعنا على الأحوال التى كانت عليها اليابان حينما عاش نورى ناجا ، حيث عايش هذا العالم الجليل عصر تانوما وحتى إصلاح كانسى اللذين تحدثنا عنهما فيما سبق . وقد عانى نورى ناجا من المجاعة ورأى بعينيه العديد والعديد من الثورات والهوجات ، فكان من الطبيعى أن يشعر بالحنين لماض لم يعانى فيه اليابانيون من تلك الويلات والكوارث فكانت نفوسهم راضية وهانئة بالطبع.

هكذا رفع نورى ناجا من شأن القيم القديمة (Kodō). ولكن تلميذه هيراتا أتسوتانى Hirata Atsutane (١٧٧٦م – ١٨٤٣م) طور هذه الفكرة من مجرد كونها فكرة فلسفية تاريخية إلى جعلها فكرة سياسية لتكون أساسا لمبدأ سياسى هام سوف يكون السبب الرئيسى فى هدم وسقوط حكومة الباكفو وهو ما عرف فى التاريخ اليابانى «بتوقير الإمبراطور وطرد الأجانب» (Sonnō Jōi) بمعنى توحيد اليابان تحت إمرة الإمبراطور الذى يمثل القيم القديمة ورفض الضغوط الأجنبية التى

ظهـرت فى أواخر عصر إيدو ويمكن للقـارئ الكريم أن يطلع بالتفصيل عن هذا المبدأ السياسى من خلال كتابنا السابق «تاريخ اليابان فى عصر ميجى».

وهكذا استطاع العالم اللغوى هيراتا أتـوتانى أن يجعل من علم اللغة اليابانية فكرا سياسيا ساهم بدور كبير فى حركة إسقاط الباكفو (Tōbaku undō) بـل واسـتعادة الإمبراطور لسـلطاته القديمـة (Ouseifukko) أو اسـتعادة طرق وقيم الآلهة القديمـة (Fukko Shintō) أى القيم التى تقـوم على ما قدمته الأعمـال الأدبية القديمـة دون أن يخلط معها أية أفكار كونفوشـية أو بوذية، ومن أهم تلـك الأفكار اليابانية القديمة تلك التى تعتبر اليابان بلد الآلهة أماتراسوأونوكامى Ama Terasuonokam هى إلهة الشـمس، وعليه فإن إمبراطور اليابان وهو سـليل هذه الآلهة والآلهة اليابانية الأخرى جميعا هو فى الحقيقة إله فى شـكل إنسـان (Ara hitogami) وعليـه فيكون له الحـق وكل الحق فى حكم البلاد والقبض على السلطات بها.

وذلك بدلا من حكومة الباكفو العسكرية التى اغتصبت ذلك الحق منه منذ عهد إيياسو وقبله إلى حد ما عصر أسرة أشيكاجا Ashikaga أو ما عرف أيضا بعصر موروماتشى (١٣٩٢م – ١٥٧٣م) وفى الحقيقة أنه ليس هيراتا وأستاذه نورى ناجا وحدهما من ناديا بهذ االمبدأ. ولكن نادى به أول من نادى العالم اللغوى كادانو أزوما مارو Kadano Azumamoro (١٦٦٩م – ١٧٣٦م) ثم نادى به أيضا كامونو مابوتشى وهو أستاذ نورى ناجـا، ولكن يرجع الفضـل إلى تطوير هذه الفكرة وبلورتها فى شـكل سياسى إلى هيراتا اتـوتانى.

والطريف فى علاقة هيراتا بنورى ناجا أنه تعلم على كتاباته ولكن كان ذلك بعد موت الثانى فأصبح من مريدى نورى ناجا بعد الموت وأطلق عليه لقب «مريد بعد الموت».

وقد كان تأثير أتسوتانى فى الكثير من اليابانيين عميقا حيث إنهم رأوه يفكر ويعمل بجد من أجل إيجاد السبل التى تعدل بناء اليابان مرة أخرى حتى تتصدى للتحديات الداخلية والخارجية التى تواجهها، وكان نتيجة لهذا التأثر والإعجاب بهذا الرجل المؤمن بوطنه أن تزايد عدد مريديه وخاصة فى الريف، وأصبح عدد هؤلاء بعد موته يزيد على ألفى شخص آمنوا بأفكاره.

ومن علماء اللغة الذين أدلوا بدلوهم أيضا من أجل البحث فى الأدب الياباني القديم العالم الضرير هاناوا هوكى إيتشى Hanawa Hokiichi (١٧٤٦م – ١٨٢١م) وقد تلقى هذا العالم العون من حكومة الباكفو واستطاع إنشاء مركز لإلقاء محاضرات عن الشعر الياباني التقليدى «وكا waka»وكذلك استطاع تجميع الأعمال الأدبية القديمة وإلى جانب ذلك كانت إسهاماته فى أبحاث علم التاريخ والأدب الياباني بارزة.

٣ - تطور العلوم الغربية :

كان لمحاربة المسيحية وتحريمها فى اليابان وكذلك إقرار سياسة العزلة أثره البالغ فى إعاقة العلوم وتدنى المعارف وتحصيلها، ولكن كان هناك متنفس واحد فى اليابان استطاع من خلاله طالبو المعرفة والعلوم الغربية الحصول عليها من خلاله، وكان هذا عن طريق الهولنديين الذين سمحت لهم حكومة الباكفو بالمعيشة والتجارة فى جزيرة دشيما بنجاساكى، وكانت الريادة فى تحصيل العلم الهولندى

Rangaku للجغرافى والفلكى نيشـيكاوا جوكـن Nishikawa Joken (١٦٤٨م - ١٧٢٤م). وقد أصدر نيشـيكاوا فى عام ١٦٩٥م كتابا مهما من جزئين عن الأحوال الجغرافية ومنتجات وتجارة الصين ومختلف الدول الآسـيوية وكذلك عن مختلف الدول الغربية ومنتجاتها وتجارتها أيضا (Kaitsushoko) ثـم أعاده إصداره فى عام ١٧٠٨م فى خمسـة أجزاء بعد تنقيحه وزيادته.

وفى عام ١٧٠٨م زار عالم الكونفوشيوسية والسياسى أراى هاكوسيكى المبشر بالمسـيحية الإيطالى سيدوتى Siddotti (١٦٦٨م - ١٧١٤م) فى محبسـه بعـد أن تم القبض عليه فـى جزيرة ياكوشـيما التى تقع فى محافظة كاجوشـيما وأرسـل بعدها إلى إيدو. وفى هذه الزيارة اسـتعلم أراى من سـيدوتى عن الديانة المسيحية وعن أحوال العالم وجغرافيته، وعلى أساس هذه المعلومات ومعلومات أخرى من الهولنديين ومن الكتب الصينية. اسـتطاع أراى هاكوسـيكى أن يؤلف كتابين الأول أصدره فى خمسـة أجزاء فى عـام ١٧١٣م واصفا فيه جغرافيـة العديد من الدول الأجنبيـة. أما الثانى فقد أصـدره فى عام ١٧١٥م، وذكر فيه معلومات هامـة عن جغرافيـة العالم وعن الديانة المسـيحية. وقد أسـهم هذان الكتابان فى زيادة وعى اليابانيين عن العالم الخارجى.

وقد كان للشـوجون الثامن يوشـيمونى أيضا دور فـى إدخال العلوم الغربيـة عندما خفف من الحظر المفـروض على الكتب الغربية المترجمة للصينيـة. فلم تكن هناك ترجمـات يابانية لكتب الغـرب بعد، وبعد يوشـيمونى بسـنوات قليلة حث العالم أوكى كونيـو زميله نورو جنجو Noro Genjo (١٦٩٣م - ١٧٦١م) علـى تعلم اللغة الهولندية لإدخال

العلـوم الغربيـة عن طريقها . ومـن هنا تطور العلـم الغربى من منطلق هولندى. وكانـت أولى العلوم التطبيقية التى اهتم بها العلماء اليابانيون علمـى الطب والكيمـاء وفى منتصف القرن الثامن عشـر قـام الطبيب ياماواكى طويو Yamawaki Tōyō (١٧٠٥م – ١٧٦٢م) بإجراء تشريح على جثة محكوم عليه بالإعدام وأصدر أول كتاب تشـريح فى اليابان، كان ذلك بعد خمس سنوات من قيامه بالإشراف على أول عملية تشريح أى فى عام ١٧٥٩م.

وفـى عـام ١٧٧١م تجمع عدد مـن الأطباء الذين يمارسـون الطب الهولنـدى أو بالأحـرى الطب الغربى عند مقصلة كوزوكاتسـو بارا فى منطقة سـنجو Senju بأيـدو وذلك من أجل رؤية عملية تشـريح لجثة شـخص أُعدم. كان على رأس هؤلاء الأطباء سـوجيتا جنباكو Sugita Genpaku (١٧٣٣م – ١٨١٧م) ومعه صديقيه ماينو ريوتاكو Maeno Ryōtaku (١٧٢٣م – ١٨٠٣م) ونـاكا جـاوا آن Nakagawa Junan (١٧٣٩م – ١٧٨٦م). كان هؤلاءالثلاثة قد تقدموا من قبل للحصول على إذن من سلطات المدينة من أجل هذه المشاهدة وكانوا قبل يوم واحد من هذه المشـاهدة قد جاءهم فجأة التصريح من مجلس المدينة للذهاب لمكان الإعدام. وقبل ذلك بشهر واحد كان جنباكو قد حصل على كتاب مبسط للتشـريح باللغـة الهولندية ولكنه لم يكن يسـتطيع قراءته، وبالمصادفة البحتة امتلك صديقه ريوتاكو أيضا نفس الكتاب ، وبمقارنة ما بالكتاب من صور التشـريح وما رآه الاثنان فى عملية التشريح لجثامين المحكوم عليهم بالإعدام وجدا أن ما جاء بهذا الكتاب الصادر بالهولندية صحيحا تمامـا. وعلى الفور قـرر الصديقان ترجمة الكتـاب الهولندى إلى اللغة

اليابانية. ولكن كانت هناك معضلة فلم يكن يعرف القليل من الهولندية سوى ريوتاكو فقط ، وحتى هذه المعرفة لم تكن كافية ، فقد تعلم القليل من الهولندية على يد رائد علم الهولنديات أوكى كونيو منذ فترة طويلة ، ثم بعد ذلك تعلمها لفترة ليست طويلة فى ناجاساكى ، ولم يكن هناك أستاذ لهذه العلوم يقوم بتدريسها لهم وكذلك لم يكن بيدهم قاموس يعتمدون عليه ، وهكذا نجد أن العلماء اليابانيين قد بذلو جهدا وفيرا من أجل تحصيل العلم الغربى وذلك منذ منتصف القرن الثامن عشر.

على أية حال استطاع الطبيبان السالف ذكرهما ومعهما طبيب آخر يدعى كاتسوراجاوا هوشو Katsuragawa Hoshū (١٧٥٤م – ١٨٠٩م) وآخرون ترجمة كتاب التشريح من الهولندية إلى اليابانية وذلك بعد أربع سنوات من المجهود المضنى تحت عنوان يابانى باسم «الكتاب الجديد فى التشريح Kaitai Shunsho . ويصبح هذا الكتاب هو أول كتاب غربى مترجم فى الطب ، وقد كان لهذه الترجمة معنى كبير فى تاريخ علم التشريح ، والعلم بشكل عام فى تاريخ اليابان.

فقد كان لإدخال الطب الغربى المتقدم إلى اليابان أثره فى تخفيف معاناة الكثير من المرضى اليابانيين ، وكان لسلوك الطبيب الرائع جنباكو وزملائه ومجهوداتهم المضنية أثره البالغ فى حث العديد من طلاب العلم على دراسة الطب الهولندى.

ثم تطرق هذا الاهتمام من جانب طلاب العلم ليس فقط إلى الطب الهولندى فقط ولكن أيضا إلى مختلف العلوم الغربية ، ولذلك تقدمت أيضا علوم مختلفة كانت إلى ذلك االحين متخلفة فى اليابان مثل الفيزياء والكيمياء والفلك والجغرافيا وغيرها من العلوم الطبيعية ومما

يزيـد من انبهارنا بجهود هؤلاء العلماء الذين أدخلوا هذه العلوم الغربية إلى اليابان أنهم استطاعوا ذلك برغم العزلة التى فرضتها على نفسها اليابان، أو بالأحرى فرضتها عليها السلطة الحاكمة المتمثلة فى عائلة طوكوجاوا فى إيدو وحتى لا تقع اليابان تحت سيطرة القوى الغربية الطامعة فى احتلال الدول الأخرى، وبفضل هؤلاء العلماء استطاع اليابانيون زيادة معارفهم عن مختلف العلوم وأن يطلوا بأعينهم على ما يحدث خارج اليابان.

وفيما بعد حمل لواء نشر العلم الهولندى (RAngaku) الطبيب وعالم الهولنديات أوتسوكو جنتاكو Otsuki Gentaku (١٧٥٧م – ١٨٢٧م) الذى تتلمذ على يد كلا العالمين الكبيرين سوجيتا جنباكو وماينو ريوتاكو، بل وأصبحت مدرسة شيراندو الخاصة التى أنشأها كعبة للعلوم الغربية، وأصبح أوتسوكى عندما كان يعيش فى مقاطعة سندای أشهر طبيب بها. ولكنه بعد أن انتقل إلى أيدو وتلقيه العلم على يد سوجيتا وريوتاكو أصبح من أشهر أطباء إيدو أيضا. وبسب علمه الغزير طلب منه الطبيبان السابق ذكرهما أن يقوم بتصحيح الأخطاء التى جاءت بكتابهما الذى قاما بترجمته عن التشريح. ومن ثم أصدر كتاب التشريح المنقح والمصحح وأسماه «كتاب التشريح المصحح» (Juteikaitai Shinsho)، وأصدر أيضا كتابا لتعليم اللغة الهولندية أسماه «مدخل إلى العلوم الهولندية» (Rangaku Kaitei) ثم توالت إسهماته بعد ذلك من أجل تطوير وتقدم العلوم الهولندية.

واشتهر جنتاكو بأنه كان يقيم فى أول يناير من كل عام حفلا على الطريقة الهولندية. ولكن حفل الأول من يناير ١٧٩٤م هو الذى تم

تخليـــده فى لوحة تذكارية باقية حتـــى اليوم، وفى هذه اللوحة يتجمع تسعة وعشرون من أشهر علماء الهولندية آنذاك. والملاحظ فى هذه اللوحة أن الطعـــام الذى كان موجودا على الطاولة وكذلك الخمر كله أوربى وإلى جانب ذلك ظهرت الشوك والسكاكين التى لم يعتد اليابانيون استعمالها حتـــى ذلك الوقت، مما يؤكد أن هذه المجموعة كانت تفضل كل ما هو غربى. ولذا أطلق على هذا الاحتفال «عيد رأس السنة الهولندية».

ومن أشهر تلاميذ أوتســـوكى جنتاكو ، إينامورا سانباكو Inamura Sanphaku (١٧٥٨م – ١٨١١م) وأوداجـــاوا جنـــزوى Uda Gawa Genzui (١٧٥٥م – ١٧٩٧م). أما الأول فيرجع إليه الفضل فى إنجاز أول قامـــوس هولندى – يابانى فى اليابـــان وذلك فى عام ١٧٩٦م. أما الثانى فقد قام بتأليف كتاب عن أمراض الباطنة.

ولم ينشط علماء الهولندية فى مدرسة شيراندو بأيدو فقط، ولكن نشط أيضا العديد منهم فى كيوطو وأوســـاكا وكذلك فى نجاساكى حيث كان يمكنهم الإتصال المباشـــر بالهولنديين المتواجدين بنجاساكى آنذاك وعن طريـــق هؤلاء العلماء العظماء ولدت أبحاث جديدة فى مجال العلوم، بل واختراعـــات عديدة فى مثـــل ذلك الوقت المبكر من تاريـــخ اليابان، أو بالأحرى من تاريخ العالم بشكل عام.

ومـــن بين الاختراعات الهامة والشـــهيرة ، آلة توليـــد الكهرباء عن طريـــق الاحتـــكاك اخترعها العـــالم العبقرى هيراجا جننـــاى Hiraga Gennai (١٧٢٨م – ١٧٧٩م) وكان هدف جنناى من اختراع هذه الآلة هو إخراج الحرارة من جســـم مريض لكى يشـــفى، وهذا العالم نشط فى عدة مجالات، فقد اكتسب خبرة من الأعشاب الطبية عندما كان يساعد

والده فى عمله بمزرعة الأعشاب الطبية الخاصة بمقاطعة تاكاماتسو، ثم لما لم تتسع مقاطعته الصغيرة لأحلامه وطموحاته ذهب إلى أيدو وتخصص فى علم النبات واستطاع صنع شهرة فى هذا المجال، ثم درس الفيزياء والكيمياء واستطاع اختراع الترمومتر أيضا. وإلى جانب ذلك اكتشف هيراجا مناجم للمعادن. ولم يكتف بهذه المجالات العلمية بل اقتحم أيضا المجالات الأدبية وكتب نصوصا مسرحية ومقالات، وكان ذا بناع طويل فى هذا المجال أيضا كما أثبت جدارته فى المجالات العلمية، ونعود ونذكر القارئ الكريم أن ذلك الرجل عاش خلال منتصف القرن الثامن عشر.

إلا أن نهاية هذ االعالم العبقرى كانت مفجعة، ففى عام ١٧٧٩م وهو ما يزال فى الثانية والخمسين من عمره زاره مريد من مريديه وربما بسبب العبقرية الزائدة خرج عن وعيه وقام بقتل الطالب الذى كان يزوره، فدخل على إثر هذا الحادث السجن وفيه امتنع عن تناول الطعام حتى وافته المنية.

ومن فرط اللامعقولية لدى هذ االعالم سواء فى عبقريته أو مجهوده أو حتى فى أفعاله كتب صديقه العالم والطبيب الشهير سوجيتا جنباكو على مقبرة هيراجا ما يلى:

يالـه من شخص غير عادى

كان يفضل الأشياء الغير عادية

وأفعاله أيضا غريبة

ما هذا ؟ حتى موته كان غير عادى

وكان لجننای صديق حميم غريب الأطوار أيضا وهو الرسام والنحات

والأديب شـيبا كونـان Shiba Kokan (١٧٤٧م – ١٨١٨م)، ويعد مع صديقه جننای من رواد الرسم على الطراز الغربى فى اليابان، ولم يبرع شيبا فى الرسم والنحت فقط بل برع أيضا فى رسم خريطة العالم وصنع الكرة الأرضية التوضيحية. كذلك سـاهم شـيبا كونان فى زيادة معارف اليابانيين عن الفلك والجغرافيا.

وتميزت رسـومات كونان الزيتية عن سابقيه من الفنانين أنها راعت قانون البعد المنظورى الذى تميز به الفن الغربى آنذاك عن الفن اليابانى، ومن أشهر لوحاته الزيتية لوحة «صورة الغربيون» .

ولشيبا كوكان أيضا عدة أعمال أدبية أوضح من خلالها مدى المعاناة التى يقاسـيها فقـراء اليابان آنذاك نتيجة المجاعـات، وعلى النقيض مـدى النعيم الـذى يرفل فيه أغنياء اليابان وما فـى ذلك من ظلم. وقد ظهـرت هذه الأعمال التى تدعو لرفع الظلم عن فقراء وبسـطاء الناس قبل أن يقول فيلسـوف عصر ميجى ومفكره الأكبر فوكوزاوا يوكيتشـى مقولته الشـهيرة «إن السماء لم تخلق أناسـا فوق أناس ولم تخلق أناسا تحت أناس» ، وذلك ببضع عشـرات من السنوات. ولعل كتابات شيبا وجننـاى الداعيـة للعدل بين المواطنين كان لها تأثـير ما على فوكوزاوا وغـيره من مفكرى عصر ميجى وغيره ممن دعوا إلى المسـاواة بين الناس بعضهم البعض.

٤ - العلم وفوبيا الخوف من الغرب :

وصل خوف المسـئولين فـى حكومة الباكفو من الغـرب وقدومه إلى اليابـان إلى أقصى مدى له فى النصف الأول من القرن التاسـع عشـر، وحادثة القبض على العالم الألمانى النابغة المتخصص فى الطب والطبيعة

والعلوم اليابانية فيليب فرانز فون سيبولد Philipp Franz von Siebold (١٧٩٦م – ١٨٦٦م) خير دليل على هذا الرعب الذى أصاب المسئولين اليابانيين آنذاك ، جاء سيبولد إلى اليابان فى عام ١٨٢٣م للعمل كطبيب فـى الوكالة التجارية الهولندية التى كانت موجودة فى جزيرة دشـيما بنجاسـاكى، وفى العام التالى أقام مدرسـة خاصة وعيادة للكشـف عن المرضى فى ضاحية من ضواحى ناجاساكى تسمى ناروتاكى (Narutaki Juku)، وقد تلقى عدد من الباحثين فى الطب دروسهم على يد سيبولد فى هذه المدرسـة، وكان من أشـهرهم تاكانو تشوآى Takano Choei (١٨٠٤م – ١٨٥٠م) وإيتو جنبوكو Itō Genboku (١٨٠٠م – ١٨٧١م) وغيرهمـا من العلمـاء الذين أصبح لهم فيما بعد باع كبير فى عالم الطب اليابانى وذلك من كل أنحاء اليابان؛ وقد زاع عن سيبولد بين اليابانيين آنذاك أنه طبيب ماهر يستطيع بمهارته شفاء المرضى المصابين بالأمراض العضال التى لا شفاء لها، واختلف سيبولد عن الأطباء الذين سبقوه فى العمل فـى الوكالة التجارية الهولندية فى أنه لم يعتن فقط بأعضاء هذه الوكالة ولكنه أيضا كان إيجابيا إلى حد بعيد فى الكشـف على المرضى اليابانيين وامتاز سيبولد أيضا عن غيره من العلماء الأوربيين فى أنه كان شغوفا جدا فى البحث فى مختلف العلوم والمعارف اليابانية فبحث فى جغرافية اليابـان ومواردها الطبيعية وحيواناتهـا ونباتاتها وإلى جانب ذلـك بحث فى تاريخ اليابان وعادات وتقاليد أهلها. ويكفى هذا العالم الألمانى فخرا أنه امتلك مفكرة أسماء تحوى نحو ستين من علماء اليابان تتلمذوا على يديه.

ولكننا إذا اعتبرنا حكومة الباكفو فى اليابان تشـبه الغز أى المماليك

فى مصر فإن سـيبولد سـينطبق عليه المثل المصرى القائل «آخرة خدمة الغز علقة»، وهـذا ما حدث بالفعل له، ففى عام ١٨٢٨م وعندما أنهى سـيبولد مهمته فى اليابان، وفى طريق عودتـه لبلاده حدثت له واقعة لم تكـن فى الحسـبان، فعندما فتش المسـئولون فى حقائب سـيبولد تم اكتشـاف أشـياء ممنوع إخراجها من اليابان، وللعجب فقد كان من بين الأشـياء المحظور نقلها خارج اليابـان خريطة اليابان ورداء خاص بأحد أعضاء عائلة الشـوجون وغيره من الأشـياء التى جلبت الشك فى هـذا العـالم الجليل، وكانت خريطـة اليابان التى كانـت فى حقيبته هى أكثر ما أثار حنق المسـئولين على سـيبولد لأنها تتعلق بقدوم السفن السـوداء الخاصة بالغرب، وقد سميت بهذا الاسـم نظرا لدهنها باللون الأسـود، وكانت خريطة اليابان أكثر ما أثار اهتمام سـيبولد عندما رآها مع عالم الفلك اليابانى تاكاهاشـى جاكياسو Takashashi Gakeyasu (١٧٨٥م – ١٨٢٩م) الذى أعطاها بدوره لسـيبولد وفى مقابل هذا أخذ من سـيبولد مذكرات الإبحار حول العـالم وأدوات فلكية، ولكنه لاقى بسبب هذا أشد العقاب عندما وُضع فى السجن ومات فيه وهو ما زال لم يبلغ الخمسين من عمره، وكنوع من العقاب الجماعى فقد عوقب أيضا تلاميذ جاكياسـو، بل وعوقبت أيضا أسرته، أما سيبولد فقد تم وضعه تحت التحقيق العنيف لمدة تزيد على العام، ثم تم طرده من اليابان بعد ذلـك، وتم عقاب بعض طلاب العلم الذين كانوا يترددون على مدرسـة سـيبولد ناروتاكى جوكو، وقد اضطر الطبيـب العبقرى تاكانو وآخرون للاختباء عـن عيون الباكفو لفترة ما حتى لا يتم القبض عليهم. وكذلك تم إغلاق مدرسة وعيادة ناروتاكى جوكو التى أراد لها سيبولد أن تكون بمثابة منارة لنشر العلوم فى كل أنحاء اليابان.

علـى أية حال لم يجد سـيبولد مفرا من العـودة إلى هولندا بعد ذلك وقـد لاقى هناك المعاملة التى تليق به كعبقرى مثله فحصل على العديد مـن الأوسمة وكرم بحفاوة، ثم عكف على كتابة العديد من الكتب التى تصـف مختلف المجـالات التى عركها فى اليابان، وسـاعده فى ذلك مـا جمعه من مواد علمية كثيرة وما اسـتكتبه لتلاميذه من تقارير، ومن أشـهر ما كتبه «اليابان» و«معلومات عن نباتات اليابان» و«معلومات عن الحيوانات فى اليابان» وغيرها من الكتب التى تُعرف وتشرح عن اليابان مما جعله من أقدر علماء العالم الذين أسهموا فى هذا المضمار.

وبعد إلغاء أمر الطرد الذى صدر ضد سـيبولد فى عام ١٨٥٨م وذلك طبقـا للمعاهـدة التجارية التى أبرمت بين اليابان وهولندا عاد سـيبولد الذى كان مشـتاقا لليابان مصطحبا معه ابنه الذى كان يدعى ألكسندر، وكان حينئذ فى الثالثة والسـتين من عمره، وكان أكثر ما أسـعده لقاءه بزوجته التى كان متزوجاً بها أثناء وجوده فى ناجاساكى وكانت تدعى أوتاكى وكذلك سـعد أيما سـعادة بلقاء ابنته التـى كانت تدعى أوينى Oine وقد ورثت هذه الفتاة العبقرية عن والدها وأصبحت طبيبة نسـاء وتوليد يضرب بها المثل فى المهارة.

وبعد ذلك ذهب سـيبولد إلى أيدو وأسهم فى حل الكثير من المشاكل الدبلوماسية بين اليابان وهولندا ثم ترك بعد ذلك اليابان فى عام ١٨٦٢م بعـد أن أمضى خمس سـنوات بها، وتوفى سـيبولد عـام ١٨٦٦م فى ميونيـخ، ولكن مصير العلمـاء اليابانيين الذين تعلموا على يد سـيبولد وزملائه بعد ذلك وأسـهموا بقـدر وافر فى الحياة العلميـة اليابانية لم يكن مثل سـيبولد وحظه الحسن فى حصوله على التكريم والأوسمة فى

بلاده فقد كان مصيرهم بائسا وتعيسا إلى حد كبير، فقد عاقبت حكومة الباكفو العسكرية عدد من هؤلاء العلماء إما بتحديد إقامتهم أو بوضعهم في السجون وذلك بسبب انتقادهم لها فيما عرف آنذاك بحبس علماء العلوم الغربية، ومن أشهر هؤلاء نجد ناكانو تشوآى، وأتاناى كازان Watanae kazan (١٧٩٣م – ١٨٤١م) وكوسيكى سان آى Koseki Sanei (١٧٨٧م – ١٨٣٩م).

أما الأول فقد تم وضعه في السجن لمدة سبع سنوات، وذات يوم شب حريق كبير في السجن فانتهز الفرصة وهرب من محبسه وظلت الباكفو تبحث عنه بكل جهدها، وحتى يهرب من براثن الباكفو اضطر إلى تغيير ملامحه بصب مادة حارقة على وجهه، وذهب إلى إيدو وافتتح بها عيادة ولكن لسوء حظه استطاع مخبر من الباكفو اكتشاف أمره فلم يجد أمامه سوى الانتحار وكان عمره آنذاك سبعا وأربعين عاما فقط.

أما الثانى فلم يكن حظه أفضل من الأول فقد واجه أيضا نهاية مأساوية، لم يلبث أن أفرج عنه إلا وحددت إقامته في بيته وعانى شظف العيش والفقر المدقع وذلك بسبب حرمانه من رتبته وراتبه على السواء، وحاول بعض تلاميذه أن يساعدوه فافتتحوا معرضا لبيع لوحاته لتوفير بعض المال له ولكن هذا السلوك لم يسلم من انتقاد المسئولين، وبعد تعرضه للعديد من المشاكل ومواجهته لحياة بائسة اضطر هو أيضا للجوء للانتحار بطريقة شق البطن ولم يبلغ بعد الخمسين من عمره.

أما الثالث فلم ينتظر كثيرا لما حدث لزميليه فلم تلبث محاكمات الباكفو للعلماء أن بدأت إلا وقد قام بالانتحار قبل أن تصل إليه نيران

هذه المحاكمات وعقوباتهـا، وهكذا كان حظ علماء الفترة الأخيرة من عصر إيدو سيئا للغاية.

وربمـا كان حظ هـؤلاء العلماء التعس الذين تحدثنـا عنهم للتو هو ما أوقعهم فى براثن محقق ومشرف الباكفو توريئى تادا ترو Torii Tadateru (١٧٩٦م – ١٨٧٣م)، فقد اشتهر عنه الحدة والشدة فى عمله – كمحقق – الذى بدأه فى عام ١٨٣٦م، فكانت تحقيقاته مع العلماء المتخصصين فى العلوم الغربية من أقصى وأشد التحقيقات، والتى مارسها فى عام ١٨٣٩م ثم لم يلبث أن مارس تحقيقاته القاسـية إبان إصلاح تنبو ومحاولته ضبط أحوال مدينة إيدو بعد قمعه للعلماء بسنوات قليلة.

وبعد هذا الغليان الذى انتاب الحياة السياسية فى اليابان بعدة سنوات جاءت سـفن الأدمـيرال البحرى بيرى لتفتح أبـواب اليابان للعلاقة مع الغرب ثم بعد مجىء بيرى بنحو خمسـة عشـر عاما جاءت رياح التغيير الشـاملة وذلك بانطلاقة ثورة ميجى الإصلاحية لينطلق معها أيضا علماء اليابـان المجتهدون لكى يبنوا دولة اليابان الحديثة، التى سـارت جنبا إلى جنب مع الدول المتقدمة تبذها بل وتتفوق عليها فى أحوال ومجالات كثيرة كما أوضحنا فى كتابنا السابق عن تاريخ اليابان فى حقبة ميجى.

٥- الأدب والفنون فى النصف الثانى من عصر إيدو :

تحدثنا من خلال الفصل الخامس عن ثقافة عصر جنروكو وما تميزت به الأعمال الأدبية لهذه الفترة (١٦٨٨م – ١٧٠٤م) من تناولها بمواضيع تنتقد فيها المجتمع اليابانى آنذاك، كذلك تناولت الأعمال الأدبية لتلك الفترة لمواضيع تعبر فيها عما يدور بصدور الناس من مشاعر وأحاسيس، وهذ النوع ء ، بقصص أوكيوطوشـى كما ذكرنا آنفا، واشـتهرت فترة

جنروكو بظهور أدباء اليابان العظام مثل سايكاكو وتشيكاماتسو وباتشو.

وفى عصر تانوما (١٧٦٧م – ١٧٨٦م) اشتهرت أعمال أدبية فكاهية (Sharebon) كانت تحوى على الكثير من الصور والرسومات وتتخذ من المواخير والمومسات وأماكنهم مسرحا لأحداثها.

وفى فترة كانسى (١٧٨٧م – ١٧٩٣م) اشتهر إلى جانب القصص الفكاهية قصص المشاعر الإنسانية (Ninjobon) والتى كانت تعتمد على حكايات العشق والغرام لأهل أيدو واعتبرت وسيطا بين القصص الفكاهية والقصص المقروءة.

ومنذ منتصف عصر إيدو وعند نهايته تقريبا انتشرت القصص المقروءة وهى التى لا تعتمد على الصور ولا الرسومات وتعتمد فى حبكتها على الكلمة فقط، ومن أشهر أدباء هذه الفترة القصاص كيوكتى باكين Kyokutei Bakin (١٧٦٧م – ١٨٤٨م) الذى اشتهر بأنه كتب أطول قصة مقروءة فى تاريخ الأدب الروائى اليابانى على الإطلاق واستغرق فى كتابتها ما يزيد عن ربع قرن، ووصل عدد أجزائها إلى مائة وستة أجزاء. وهذه الرواية تعد من الأدب الذاتى التى تؤكد على المعانى الجميلة فى حياة الإنسان من وفاء وإخلاص واعتراف بالجميل وغيرها.

ومن الروائيين الذين اشتهروا أيضا فى الفترة الأخيرة من عصر إيدو نجد الكاتب جيبن شاإيكو Jippen Shaikku (١٧٦٥م – ١٨٣١م) الذى كتب أشهر رواية فكاهية فى عصر إيدو، وتحكى هذه الرواية التى تعد من أدب الرحلات المواقف الفكاهية المختلفة التى تعرض لها بطليها وإخفاقاتهما فى رحلتهم عن طريق البحر الشرقى وصولا إلى كيوطو وأوساكا.

ويعد الأديب سانتو كيودن Santo Kyoden (١٧٦١م – ١٨١٦م) من المبدعين الأفذاذ فى الفترة الأخيرة من عصر إيدو والذى لم يتوقف نشاطه على الأدب فقط ولكن امتد للفن حيث كان من أشهر رسامى لوحات تسمى أوكيو أى Ukiyoe.

ومن شعراء النصف الثانى من عصر إيدو والذين كان لهم باع فى هذا المضمار من الأدب الشاعر يوسا بوسون Yosa Buson (١٧١٦م – ١٧٨٣م) وهو من شعراء الهايكو، ومن فرط إعجاب اليابانيين بشعر بوسون شبهوه بشاعر الهايكو العظيم ماتسو أو باشو.

ولن نستطيع ترك الحديث عن شعر الهايكو الذى ازدهر طوال عصر إيدو دون الحديث عن الشاعر العظيم كوبایاشى إيسًا Kobayasha Issa (١٧٦٣م – ١٨٢٧م). ويمثل إيسا مع باتشو وبوصون أضلاع مثلث الشعراء الثلاثة العظام فى شعر الهايكو.

ترك إيسا مسقط رأسه بقرية كاشيوارا وهو فى سن الخامسة عشرة ذاهبا إلى إيدو، وبدأ فى تعلم شعر الهايكو، وحتى بلغ الحادية والخمسين من عمره ظل يتجول من مكان إلى آخر لاقيا خلال هذه الفترة أشد أنواع المعاناة حتى رجع إلى موطنه الأصلى، وبعد عودته إلى مسقط رأسه قام بتنفيذ وصية والده فى تقسيم ورثه بين زوجة أبيه وأخيه الصغير، ولم يبق له سوى قطعة أرض صغيرة وبيت أصغر، وأخيرا وفى عام ١٨١٥م وهو فى سن الثانية والخمسين تزوج واستقر بعد رحلة معاناة طويلة.

وبسبب المعاناة التى لاقاها إيسا فقد اتسم شعره بالكثير من الذاتية والشعور بالتعاطف مع الضعفاء من الناس ، وقد ترك هذا الشاعر عدة

مجموعات من شعر الهايكو التى يعشقها اليابانيون ، وكذلك ترك عدة مذكرات أدبية شهيرة.

وفيما عدا فترة الشوجون المتقاعد إيينارى والتى اتسمت بكثير من الدعة والترف والتى امتدت لمدة أربع سنوات فقط (١٨٣٨م - ١٨٤١م) فقد عانى الكثير من أدباء وشعراء الفترة الأخيرة من عصر إيدو أشد المعاناة من حكومة الباكفو العسكرية عقابا لهم على كتاباتهم فقد عوقب الروائى تاميناجا شونسوى Tamenaga Shunsui (١٧٧٠م - ١٨٤٣م) وذلك بتهمة تحطيم التقاليد بسبب رواياته العاطفية، وكان آنذاك قد بلغ الثانية والخمسين من عمره، ثم لم يلبث أن توفى فى العام التالى ، وعوقب أيضا الروائى ريوتى تانيهيكو Ryutei Tenhiko (١٧٨٣م -١٨٤٢م) بسبب تناوله لأوضاع حريم الشوجون من زوجات وجوارى وعشيقات.

أما فى الفنون فإن لوحات أوكيو أى التقليدية كانت قد تم اختراعها بيد الرسام هيشيكاوا مورونوبو Hishikawa Moronobu (؟ - ١٦٩٤م) عن طريق طبعها على رسم خشبى (كليشيه) ولكن تميزت أنها كانت تطبع بالحبر الصينى الأسود بالطبع. وكانت فى الأساس تستخدم كصور تزين الكتب المصورة، وفى بعض الأحيان كان الرسام يضيف الألوان التى يفضلها وتعتبر لوحة مورنوبو الشهيرة «الجميلة التى تلتفت للوراء» مثلا حيا على هذا النوع من اللوحات.

وبعد ذلك وفى فترة كيوهو (١٧١٦م - ١٧٣٦م) تم اختراع نوع جديد من لوحات أوكيو أى وذلك بإضافة اللونين البمبى والأخضر . ثم بعد ذلك وفى فترة ميوا Meiwa (١٧٦٤م - ١٧٧٢م) استطاع الرسام

سـوزوكى هارونوبو (١٧٢٥م – ١٧٧٠م) إنجاز نفس النوع من اللوحات ولكن باسـتخدام ألـوان عديدة، وذلـك منذ عـام ١٧٦٥م لتصبح هذه اللوحات فنا رائعا يجذب الإعجاب والألباب، ومع اسـتخدام هارنوبو لعـدة ألوان مثل الأحمر والأصفـر والأخضر والأزرق وما بين هذه الألوان من ألوان أخرى أصبح شكل اللوحة وكأنه قطعة قماش من القطن مزينة بخيوط جميلة وهى التى تسمى باليابانية نيشيكى ولذلك أطلق على هذا النوع من اللوحات «لوحات الخيوط الجميلة» وبهذا الأسلوب فى الرسم أنجـز هارونوبو العديد مـن لوحات الجميلات اليابانيـات التى نالت إعجـاب اليابانيين فى عصر إيدو أيمـا إعجاب. ولأن صور الجميلات هـذه وكذلك صور فنانى المسـرح الذى كان مزدهـرا آنذاك تم إخراجها بأعداد كبيرة عن طريق طبعها على الرسم الخشبى فقد كان من المستطاع الحصـول عليها بأثمـان رخيصة. ولذلك أصبحـت تزين حوائط بيوت التجار وسكان المدينة بكثرة.

واسـتقبلت لوحات أوكيـوأى التقليدية عصرهـا الذهبى بظهور كلا الفنانين كيتاجاوا أوتامارو Kitagawa Utamaro (١٧٥٣م – ١٨٠٦م) وطوشـو سايشـاراكو Toshu Saisharaku وذلك أثناء إصلاح كانسـى (١٧٨٧م – ١٧٩٣م). والأول اشـتهر برسم لوحات الجميلات النصفية وكذلك لوحات الممثلين المسـرحيين، أما الثانى فاشـتهر أنه قام خلال عامـى ١٧٩٤م و١٧٩٥م فقط برسـم حوالى مائة وأربعـين لوحة لفنانى المسرح ولاعبى رياضة السومو التقليدية وبعد ذلك اختفى تماما عن الأنظار ولذلك لا تذكر المراجع التاريخية سنتى ميلاده ووفاته، وتميزت لوحاته بالذاتية الشديدة.

وفـى هذا نجـد أن أوتامارو قد اختلف كثيرا عمـن قبله من فنانين حيـث كان الفنان فيما سـبق يعطى للشـخصية التـى يرسمها خلفية توضـح تفاصيل المكان الموجود به الشـخصية المراد رسمها. ونرى ذلك فـى لوحات الفنان الكبير هارونوبو. ولكـن أوتامارو أعطى جل تركيزه واهتمامـه على رسـم الجميلة أو مؤدى الحركة المراد رسمه. فاسـتطاع بذلك توضيح مشاعر وجمال اللوحة.

أما شـاراكو فقد برع بحق فى تصوير ملامح أوجه فنانى المسـرح من عيون تقترب من الحول إلى أفمام ملتوية. ومن ثم فقد خرج شـاراكو عن المألـوف عن صورة الفنان المسـرحى من كونه جميـل الملامح إلى صورة وملامـح غـير مفصلة لهؤلاء النجوم الذين عاشـوا فـى عصر إيدو. مما جعلهـم يغضبون من هـذا الفنان الذى ظهر فجأة ثم لم يلبث أن اختفى أيضا فجأة ربما خشية غضبة الفنانين، ولكنه على أية حال أبقى عددا كبيرا من اللوحات كما ذكرنا آنفا. وهذه اللوحات تمثل ثورة فنية عظيمة لليابان.

وبعـد هذا الازدهـار الكبير للوحات الأوكيوأى بـدأت بعد ذلك فى بداية القرن التاسـع عشر تشهد ركودا وضعفا رويدا رويدا واقتصر نشاط فنانـى هذه اللوحات على تقليد من سـبقوهم من فنانين عظام، ثم ظهر نوع جديد من اللوحات يعتمد على المناظر الطبيعية مثل لوحات الرسام كاتسوشيكا هوكاساى Katsushika Hokusai (١٧٦٠م - ١٨٤٩م) الذى اعتمد كثيرا على رسم جبل فوجى الذى يعتبر أشهر الجبال فى اليابان نظرا لاختلاف صورته من فصل لآخر خلال العام الواحد. فكانت أروع لوحات هذا الجبل من إبداعات هذا الرسام.

ومـن المناظر الطبيعية الأخرى اشـتهرت محطـات الإقامة الثلاث والخمسـين التى تنتشر فى المسـافة ما بين منطقة نيبون باشى فى إيدو وحتى منطقة سـانجو أوهاشـى فـى العاصمة التقليديـة كيوطو، وهذه المسافة تزيد على الستمائة كيلو متر ولذلك كان من الطبيعى أن تختلف المناظر من مكان لآخر مما أتاح الفرصة لفنان بارع مثل أندو هيروشيجى Ando Hiroshige (١٧٩٧م – ١٨٥٨م) لتصويـر وتخليد هذه الأماكن ذات الطبيعة الرائعة التى تُعرف بها اليابان، ولذلك عرف هيروشـيجى بأنـه أمهر من صور طبيعة اليابان الخلابة وكذلك حياة اليابانيين الذين يعيشون فى مختلف الأماكن وأذاب الاثنين فى لوحة واحدة رائعة.

ومن الرسـامين الذين أسـهموا فـى تحديث فن الرسـم والأخذ عن الفنـون الغربية اشـتهر الفنـان ماريوما أوكيـو Maruyama Oukyo (١٧٣٣م – ١٧٩٥م). فقد تأثر ماريوما كثيرا بطريقة التصوير الحسـى الغربى فى رسم لوحاته ، واتسمت لوحاته التى احتوت مناظرا للجبال والأنهار والطيور وأنشطة الناس العديدة بالموضوعية إلى حد كبير، وبذلك شـكل ماريوما مع هيراجا جننای وشيباكوكان الذين تحدثنا عنهما آنفا الضلع الثالث لهؤلاء الفنانين الذين تأثروا كثيرا بالفن الحسى الغربى.

* * *

الخـاتمة

لعلك أيها القارئ الكريم قد أصابتك الدهشة البالغة بعد قرائتك لهذا الكتـاب المتواضع بسـبب كم التغيرات التى حدثـت لليابان عبر أربعة قرون من الزمان . فقد استعرضنا معا تاريخ هذه الدولة منذ حصولها لأول مرة على البندقية فى منتصف القرن السـادس عشـر ، ثم خروجها من حالة التشرذم والتشـاحن بين مختلف مقاطعاتها الكثيرة العدد . وكأن كل مقاطعة دولة مستقلة بذاتها ولها حدودها الخاصة بها ، لدرجة أن كل مقاطعة كانت تفرض جمارك معينة تحددها بنفسها .

وفى نهاية القرن السادس عشر تم توحيد البلاد تماما على يد الزعيم العصامى طويوطومى هيديوشـى الذى أكمل مشـوار التوحيد الذى بدأه الزعيـم القوى أودا نوبوناجا . ونحن نعتبر هـذا التوحيد هو الانطلاقة الأولى نحـو تكوين دولة اليابان القوية التى انطلقت انطلاقة قوية وفتية نحو العصر الحديث أدهشـت العالم أيمـا إدهاش . وبالذات انطلاقتها منـذ النصف الثانى من القرن التاسـع عشـر خاصة بعـد انتصارها فى حربيها ضد الصين وروسيا .

ولكن هذه الدهشـة التى تنتاب القارئ سـوف تتبدى عندما يعلم أن اليابانيين يبذلون قصارى جهدهم من أجل بلدهم انطلاقا من مبدأ واحد هو حبهم وانتماؤهم الشديد له (Aikokushin) .

ومما لا شـك فيه أن أسـرة طوكوجاوا التى حكمت اليابان لمدة تزيد على القرنـين ونصف القرن عندما قررت فـرض العزلة حول اليابان لم

يكن هذا من منطلق حماية نفسها فقط بل كان فى المقام الأول من أجل حماية اليابان من خطر الاستعمار الغربى وخطر انتشار معتقدات دينية مخالفة لما يعتقده اليابانيون من مئات خلت من السنين . فالاستعمار الغربى بدا فى شراهته رهيبا فى التهامه لبلاد عديدة لدرجة تناحر دول أوربية عديدة مثل أسبانيا والبرتغال وهولندا وإنجلترا وكذلك فرنسا من أجل ضم مستعمرات جديدة تحت سيطرتهم .

إذن نحن أمام قوم يفعلون كل شئ من أجل رفعة بلادهم . فعلى الرغم من هذه العزلة التى ربما كانت إيجابيتها أكثر من سلبياتها فلم تمنع عددا غير قليل من علماء وطلاب العلم اليابانيين أن يتواصلوا مع العالم الغربى منذ منتصف القرن الثامن عشر . فرأينا معا عالمين جليلين هما سوجيتا جنباكو ، وماينو ريوتاكو يقومان مع أطباء آخرون بأول عملية تشريح لجثة رجل محكوم عليه بالإعدام وذلك فى عام ١٧٧١م ، ثم قاما بعد ذلك بترجمة أول كتاب فى علم التشريح عن الهولندية .

ولنا أن نعرف مدى نمو اليابان عندما نعلم أن تعداد مدينة كأيدو وصل فى منتصف عصر إيدو إلى ما يقرب من المليون نسمة ، وهذا يعنى أن درجة كبيرة من الرخاء والاقتصاد القوى قد بلغتهما اليابان آنذاك . وهذا ما أدى إلى نمو طبقة غنية من التجار وسكان المدن . وبرغم ذلك لم يمنع هذا النمو الاقتصادى من حدوث العديد من الهوجات والثورات إما بسبب المجاعات أو بسبب زيادة الضرائب التى كانت تفرضها حكومة الباكفو العسكرية وخاصة على المزارعين ، ولم يسلم سكان المدن أيضا من فرض الضرائب عليهم وإن كان حالهم أفضل من الفلاحين . ولذلك تميز عصر إيدو بكثرة عدد هذه الثورات والهوجات حتى وصل عددها إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف هوجة وثورة . وهذا العدد من الثورات لم

يحدث على الإطلاق فى أى عصر آخر من العصور التاريخية اليابانية .

هذه الصورة من النشـاط المدنى وصعود التجار الأغنياء لكى يصبحوا فى طليعة المجتمع اليابانى آنذاك ، وكذلك تمتع السكان العاديون سواء فـى المدن أو فـى الريف بقدر كبير من الشـجاعة للوقوف بتحدى أمام سلطة حكومة الباكفو . وهذا الوضع الجديد لعامة الشعب جعل المؤرخين يطلقون على عصر إيدو أنه « عصر عامة الشعب » . وهذا الوضع المتميز ربما افتقدوه إلى حد ما فى عصر طايشو (١٩١٢م- ١٩٢٦م) وإلى حد كبير فى النصف الأول من عصر شوا ، أى منذ عام ١٩١٢م وإلى نهاية الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥م وذلك لطغيان العسكريين على كل الأمور فى البلاد وتراجع الحركة الشعبية بدلا من ذلك .

وقد أدى فشل الحكومة العسكرية فى إيدو فى إصلاح أحوال البلاد والعبـاد وعدم اسـتطاعتها تجنب الكثير من الثورات سـواء كانت فى الريف أو فى الحضر ، أدى هذا كله إلى اضطرار زعماء أقوياء سواء كانوا شوجونات أو من مستشـارى الشوجون إلى القيام بعدة ثورات إصلاحية كان أشـهرها ثورة كيوهـو الإصلاحية التى قام بها أعظم شـوجون فى عصر إيدو وهو طوكوجاوا يوشـيمونى وذلك فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وثورة كانسى الإصلاحية التى قام بها المستشار ماتسودايرا سـادانوبو فى نهايـة ذات القرن أيضا . ثم ثـورة تنبو الإصلاحية التى قام بها المستشـار ميزنو تاداكونى فى نهاية عصر إيدو . وهذه الثورات الإصلاحية إن دلت على شـىء فهى تدل على حيوية اليابان وسياسيها وحرصهم على تصحيح مسار سياساتهم لإصلاح أحوال بلدهم وذلك منذ زمن بعيد .

فى الفترة من يوليو ١٨٦٧م وحتى أبريل من العام التالى قام سـكان

مدينة إيدو بإحداث حالة من الفوضى ، وكانوا يقومون بالرقص متغنيين بأغنية عنوانها « كله ماشى أو كل شىء مباح » إذا جاز القول بالعامية المصرية (Eejanaika) ، وكان الرجال خلال هذه الفوضى يرتدون ملابس النساء ، والنساء كن يرتدين ملابس الرجال مؤدين حركات فوضوية ومضحكة فى ذات الوقت . ويرى العديد من المؤرخين والباحثين فى التاريخ اليابانى أن هذه الحوادث الفوضوية الغريبة لم تكن سوى نذير بحدوث تغيير كبير فى المجتمع اليابانى أو ثورة تحدث تغيرا فى مسار الأحداث بالبلاد . وهذا التغيير هو ما عبرت عنه الأحداث التالية فى اليابان ممثلا فى ثورة ميجى الإصلاحية الكبرى التى أخذت بيد اليابان لتصبح فى مصاف الدول المتقدمة فى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية .

إننى وأنا أكتب سطور هذه الخاتمة أسترجع ما حدث فى بلدى مصر خلال السنوات القليلة الماضية . فقد حدث هرج ومرج فى قلب العاصمة « القاهرة » لم يتعود عليه القاهريون أو بالأحرى لم يروه من قبل . وذلك عندما قامت مجموعات من الشباب بأفعال أقل ما يقال عنها إنها أفعال فوضوية وغير أخلاقية ، غير عابئين فى ذلك بأعراف أو تقاليد أو حتى قوانين يمكن أن تعاقبهم على ذلك .

والحقيقة أننى شعرت آنذاك بأن شيئا ما سوف يحدث فى مصر كما حدث فى اليابان فى آخر سنة من عمر عصر إيدو والأحداث التى تحدثنا عنها للتو. وقد صدق حدسى التاريخى ، وكذلك صدقت مقولة أن التاريخ يعيد نفسه ، ولكنه أعاد نفسه هذه المرة فى بلد يبعد عن اليابان بآلاف الكيلو مترات وفرق زمان يزيد على القرن ونصف القرن ، وحدث بالفعل تغيير هائل فى المجتمع المصرى وسياسته على السواء.

وهـا هى الأحداث التى تمر بهـا مصر فى يناير من عام ٢٠١١م من مظاهرات وهوجات تقترب من أن تكون صورة مصغرة من الحرب الأهلية تذكرنا بما حدث بعد سـقوط أسـرة الطوكوجـاوا وبدايات عصر ميجى .وذلـك من حرب طويلة بـين جيش حكومة الباكفـو وجيش الحكومة الجديدة (حكومة ميجي) بما عرف بحرب البوشين والتى استمرت لمدة زادت على العام ، وكذلك حرب السـينان والتى بدأت فى عام ١٨٧٧م أى بعد عشر سنوات من بدء عصر ميجى واستمرت لعدة سنوات ، وهذه الحـرب كانت ضد حكومة ميجى وتعتبر مـن الحروب الأهلية ، وهذا يعنى أنه برغم مرور عشـر سـنوات على بدء عهد جديد وسياسة أيضا جديدة فلم يستتب الأمر لحكومة ميجى . وبرغم نشوب هاتين الحربين الأهليتين الكبيرتين وغيرهما العديد من الانتفاضات التى قامت بعد ثورة ميجـى الإصلاحية ، إلا أن هذا لم يمنع من تقدم هذه الثورة الإصلاحية الكـبرى إلى الأمام وتحقيقهـا لمعظم أهدافها التى قامـت من أجلها كما أوضحنا فى كتابنا « اليابان فى عصر ميجى » .

وهنا أسـتطيع أن أقدم هذه التجربة التاريخية اليابانية التى حدثت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والتى أعيها تماما ، وأقارن بها ما يحدث فى مصر خلال السنوات القليلة الفائتة وتلك الأحداث العصيبة الراهنـة والتى أكتب فى خضمها هذه الخاتمة حيث إننى أكتبها خلال الذكـرى الثانية لثورة ٢٥ ينايـر ٢٠١١م ، وهذه المقارنة تجعلنى أطمئن كثيرا أن ما سـوف يجىء أفضل كثيرا مما سـبق ، وذلك بعد انتهاء هذه الأحداث المؤسفة التى تمر بها بلدى مصر خلال هذه الأيام .

فنحن يجب دائما أن نتعلم من التاريخ الكثير من الدروس والعبر التى تجعلنا نستشرف المستقبل الذى سيكون مشرقا بإذن الله تعالى .

المصـادر والمراجـع

(1) Junia Han Nihon no rekishi (3) Shi. Nō.kō.Shō.

مطبوعات جونيا – تاريخ اليابان (٣) المحاربين – المزارعين – الصناع – التجار .

(2) Obunsha(4) Chōninno Shuppatsu Azuchi momoyama-Edo jidui

أبونشا (٤) – إنطلاقة سكان المدن – عصور أزوتشى موموياما

(3) Owada Tetsuo Nihon No rekishi ga wakuru hon

أوادا تيتسوأو تاريخ اليابان المبسط

(4) Gomi Fumihiko Shosetsu Nihonshi Kenkyu

جومى فوميهكو المبحث المفسر فى تاريخ اليابان

(4) Yasuda Motohisa Nenpyo Yosetsu Nihon No Rekishi

ياسودا موطوهيسا قائمة وتحليل تاريخ اليابان

(5) Yamamoto Tekeo Shinkenkyū Nihonshi

ياماموطو تاكيئو المبحث الجديد فى تاريخ اليابان

(6) Nishio Kanji Kokuminno rekishi

نيشيئو كانجى تاريخ المواطنين

(7) Gakushū Hyakka Daijiten Nihon no rekishi (1)

الموسوعة التعليمية الكبرى – (١) تاريخ اليابان

(8) Friend Japonicia (2) Nihon no rekishi Sekai no rekishi

فريند جابونيكا (٢) تاريخ اليابان – تاريخ العالم

(9) Yomiuri Nihon no rekishi (7) (8) (9)

يومى أورى تاريخ اليابان (٧) و (٨) و (٩)